الرواية الغربية
والبحث عن الإله المجهول

(١)

بغض النظر عن القيمة الفنيّة لروايتيّ الأديب الأمريكي جون شتاينبك (البحث عن إله مجهول) [١]، والأديب الألماني هيرمان هيسّةْ (سد هارتا) [٢]، حيث تعتبر الأولى واحدة من أعمال شتاينبك الاعتيادية وتكاد الثانية أن تكون من أكثر أعمال هيسه، بعد (لعبة الكرات الزجاجية)، إتقاناً فنيّاً.

بغض النظر عن الجانب الفني فإن الصفحات التالية ستتمركز عند المضمون وبعبارة أدقّ عند جانب من المضمون ينطوي على رؤية تكاد تكون واحدة للمعبود، وهي رؤية ترجع بالإنسان مسافات زمنية متطاولة باتجاه الوثنية الطبيعية (الحلولية) مرة أخرى، بعد إذ حرّرته الأديان السماوية من ثقلتها وظلمتها وتسطّحها وتفاهتها وتزييفها، ورفعته إلى أفق التوحيد وعمقه وصدقه وعقلانيته وألقه!

(١) ترجمة عمر دياوي ، الطبعة الثانية، مؤسسة المعارف ، بيروت - ١٩٨٣ .
(٢) ترجمة -سمير علي، دار الرشيد، منشورات وزارة الثقافة والإعلام ، بغداد ١٩٨١م.

الروائيان ابنا بيئة غربية قطعت جلّ علائقها بالنصرانية المحرّفة وفاءت إلى العلمانية أو الإلحاد.. ولكن وبمرور الوقت أدرك الأبناء والأحفاد حقيقة أن المرء فرداً وجماعة - يصعب عليه، بل يستحيل، أن يظل بدون إله، أو عقيدة عن الإيمان به. ولقد كانت النخبة أو الطليعة المثقفة الواعية ذات الإحساس المرهف في التعامل مع الحياة والوجود، أكثر إدراكاً لهذه الحاجة الملحّة ولضرورة أن يرجع الإنسان الضائع إلى الله.

ولكن كيف؟ ذلك هو السؤال.. فإن الاهتداء إلى الدين الحقّ لن يكون سعياً وضعياً، أو جهداً بشرياً ارتجالياً.. وبدون إشارة تجيء من فوق.. وحي أمين يحمل رسالة السماء إلى العالم، فإن أشد الناس ذكاءً وفاعلية وإدراكاً لن يقدر على بلوغ الهدف مهما بذل من جهد واستنفر من طاقات، ولن تكون النتيجة إلاّ نوعاً من الوهم، من الاعتقاد الزائف بأنهم وضعوا أيديهم على ما يريدون وأن هدفهم المرتجى قد تكشّف إزاء وعيهم وقناعاتهم بكل الصدق المطلوب.

هذه المعضلة.. معضلة البحث عن الإله المجهول، أو الضائع، والعودة إليه، أو إعادة اكتشافه! عولجت في الغرب على أكثر من مستوى يتراوح بين الفلسفة والفن، ويتأرجح بين الأكاديمية والإبداع. ولقد سبق وأن تابعنا جانباً من هذه المحاولات في كتاب (تهافت العلمانية) الذي صدر في منتصف السبعينيات.

أما هذه الصفحات فستنصرف إلى متابعة نموذجين إبداعيين لاثنين من أشهر الروائيين المعاصرين، سعياً إلى التعبير كل من زاوية رؤيته المستقلّة، وبصيغة الخطاب الإبداعي، عن المعضلة، وتصوّراً كما لو أنّ البطل قدر في نهاية الأمر على تحقيق بغيته وعثر على الإله المجهول الذي جهد في البحث عنه.. ولكن أيّ إله هذا؟!

(٢)

في (البحث عن إله المجهول)، والعنوان يحمل جوهر العقدة الروائية، يغادر البطل (جوزيف واين) أرض آبائه وأجداده باتجاه الغرب الأمريكي - ولهذا دلالته أو معادله الموضوعي إذا استخدمنا المصطلح النقدي - بحثاً عن الأرض الصالحة للإنتاج والاستقرار. وفي مكان ما هناك يجد البطل بغيته فيلقي عصا الترحال وينشئ مزرعة، لكي ما يلبث إخوته، بعد وفاة أبيهم، أن يلحقوا به: توماس الانعزالي الذي يجد عزاءه في صحبة الحيوان، بيرتون، المتديّن الكئيب، وبنجامين الحسّي المنحلّ.

ومنذ البدايات الأولى يضع شتاينبك لمساته التي ما تلبث خطوطها أن تزداد عمقاً ووضوحاً لكي تؤكد الحالة التي يحلّ فيها الإنسان في الطبيعة وتصير هذه، أو بعض رموزها، معبوداً: «وأحسّ في نفسه عطفاً على العشب والأزهار وحبّاً لهما، كما أحس بأن الأشجار أطفال أعزّاء على قلبه، أطفاله هو، فلذات

كبده التي غذّاها من دمه، وأن الأرض ولده الأكبر، يحبّه، يعشقه، يقدّسه، يعبده، فهو هو.. الأرض.. جوزيف، فلماذا لا يعبد نفسه؟» (١)

فإذا استثنينا مفردتيْ (التقديس) و(العبادة) اللتين تحملان دلالتهما الوثنية الواضحة، كما سيتأكد فيما بعد، فإننا سنجد أنفسنا إزاء وضع أو خبرة قد تكون اعتيادية: حبّ الأرض والاعتزاز بها، والتواصل معها باعتبارها مصدر العطاء. إننا نقرأ في مكان آخر، عرضاً مؤثراً لهذا التقابل المألوف، المتوازن، بين الإنسان والأرض: «انقضى أسبوعان من الزمن وهو وحيد في هذه الأرض يقطعها كل يوم من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب، يتحدث مع البلّوطات فيها ويداعب الشجيرات على حافة مسيل الماء. إنه يدغدغ الأزهار البرية الكبيرة، ويخاصر جذوع السنديان. يتحدث إلى كل صخرة، ويهمس في أذن كل قاع من الأرض المنبسطة. وهو يناجي غابة الصنوبر ويطارح التلّة الصغيرة الغرام. كان يشتهي الأرض فيكملّها، ويخاطب الرمل بأرقّ لغة وأعذب لسان، مع أنه لا يحسن الحديث مع الناس» (٢).

لكن الأمر لا يقف عند هذا الحدّ.. عند التواجد مع الأرض والاندماج في جمال الطبيعة، والتعاطف مع الموجودات؛ وهي

(١) البحث عن إله مجهول ص ١٤.
(٢) نفسه ص ١٧.

الحالة المتوازنة، المطلوبة، التي تعمّق معطيات الإنسان الحسّية والوجدانية وتزيدها غنى وعطاء، والتي - وهذا هو الأكثر أهمية- تمنح الإيمان بخالق الأرض والطبيعة والجمال، زاداً يعينه على المزيد من التألّق والخفقان!

والأرض، في الأساس، مسخّرة للإنسان، وكل ما يخفق فيها ويختبئ في طيّاتها، أو يطلّ برأسه في جنباتها، إنما هو دعوة للإنسان.. دعوة مزدوجة أو نداء ثنائي يغذّي وجدانه حيناً، ويهبه الوسائل والتيسيرات التي يديم بها حياته ويرقّيها حيناً آخر، وهكذا فإن التعاطف مع الأرض، بل التواجد الذي يبلغ حدّ الذوبان والإعجاب، إنما هو أمرٌ طبيعي بين طرفين أحدهما يأخذ والآخر يعطي، ولكن يبقى الآخذ هو السيّد المطاع ويبقى المعطي خادماً مطيعاً، لا معبوداً يُخشى منه ويتقرّب إليه، وقبل هذا وذاك، وبعد هذا وذاك، يبقى الآخذ والمعطي خلقاً من خلق الله، وتبقى علاقة الأخذ والعطاء هذه دعوة مفتوحة للتوجه بالشكر والامتنان للمعبود الخالق المتفرّد جلّ في علاه.

في المنظور الإسلامي ترتسم خطوط توازن عجيب في الحوار بين الإنسان والأرض شأنها شأن ما يفعله هذا الدين في سائر مناحي الممارسة البشرية في العالم. إنه يفتح الباب على مصراعيه لكي يأخذ الإنسان من الأرض ما هو بأمس الحاجة إليه جمالاً ومعاشاً.. عطاءً وجدانياً، وغذاء لضرورات الحياة

والوجود.. لكنه بتصميمه المعجز للعلاقة بين الطرفين، علاقة السيّد المريد بالخادم المسخّر لمطالبه ابتداء، لا يسمح بالتسيّب والانفلات والذهاب بعيداً، أو الارتداد بعبارة أدقّ، صوب الوثنية التي تقدّس الطبيعة وتعبد الأرض وتتقرّب لرموزها، وتتنازل عن المرتبة العليا التي منحها الدين الحقّ للإنسان.. وتنسى الله.

تصميم معجز لأنه يشبع كل حاجات الإنسان الوجدانية والحسّية والحيوية، يشبعها إلى مداها، ولكنه يمنحها في الوقت نفسه الضوابط والصمامات التي تحميها من التسيّب والارتداد صوب تعبّد للأدنى لا يليق بالإنسان.

في الصيغ الوضعية والدينية المحرّفة يختلّ التوازن، وتضطرب العلاقة وتتصادى الأفعال الخاطئة وردودها لكي تدفع الإنسان إلى القطيعة والعزلة والجفاء حيناً، وإلى الاندماج والذوبان والفناء الذي يضيع معه الإنسان وينزل عن موقعه المتميز، المتفرد، العالي، حيناً آخر.

في رواية شتاينبك لا يقف الأمر عند تلك الحوارية المؤثرة بين البطل والأرض، فيما مرّ بنا قبل لحظات، لكنه يمضي قدماً باتجاه «الضلال» الذي تنعكس فيه الوضعية البشرية وتغدو هذه الشجرة أو تلك، وهذه الصخرة أو تلك، وثناً يُعبد، ويصير الإنسان عبداً للحجارة والظواهر والأشياء بعد إذ كان سيّداً.

وليس بعد الحقّ إلاّ الضلال، ولا بعد كرامة العبودية لله إلاّ التمسّح بالأشجار والحجارة والأشياء، وتجاوز النظر إلى السماء صوب التحديق بالأرض التي تصير حينذاك آلهة تحيي وتميت! ونستمع إلى جوانيتو ذي الأصل الإسباني، الذي يعمل مع البطل في المرزعة يقول له:

«- لقد علمتني (يقصد أمه الهندية) أن الأرض هي أمنا جميعاً، تهب الحياة لكل ما عليها وتعيدها إلى صدرها عند وفاة صاحبها. وعندما ألاحظ ذلك يا سنيور أصدّق قول أمّي فأعتقد بصحّته. وعندئذ أقرّر أنني لست من قشتالة وإنما هندي.

- ولكنني لست هندياً يا جوانيتو، ويبدو لي أنني أعتقد بصحة ما علمتك أمك» (١).

ويلمس المرء ها هنا رفضاً للنصرانية «أشياء لا تسرّ الأب أنجيلو» كما قال جوانيتو لصاحبه(٢). إنه -في نهاية الأمر- تراجع باتجاه الوثنيات العتيقة والهندية الحمراء أو غيرها، فراراً من ضغوط دين لم يعد بقادر على إعادة المؤمنين إلى أحضان العالم. ولسوف نؤشّر على هذه المعضلة في مقطع آخر. والمهم هو أن القارئ كلما أوغل في متابعة (البحث عن إله مجهول) أخذ يتكشف له شيئاً فشيئاً البؤرة التي تستقطب الحبكة الروائية،

(١) نفسه ص٣١ .
(٢) نفسه ص ٣١.

الإيمان الوثني الذي يستعيض به صاحبه عن الدين المرفوض.. هذا الإيمان الذي يعبّر عن نفسه حيناً بعشق جارف لنماء الحياة والتكاثر، حدّ الحلول والاتحاد والتلاشي بين الإنسان والوجود، يتجاوز بداهات العقل لكي ينحدر صوب نوع من الحسّية التي يصبح فيها الإنسان والحيوان والنبات والأشياء.. سواء: «لم تكن في المزرعة عائلات ولا عجول ولا أمهار، كان كل ذلك أبناءً وبناتٍ لجوزيف.. إن كل شيء حوله يموج بالخصب: الأرض والأبقار والناس، وشهوته الخاصة تتوزع على الجميع فتلقّحه.. كانت تقتله الرغبة في النماء، في التكاثر، يودّ لو ينمو كل شيء حوله بقوة.. وكانت عيناه الزرقاوان يشع منهما بريق شهوته العارمة، بريق إيمانه الجديد وعقيدته الراسخة.. وعندما كانت تسير باتجاهه كلبة منتفخة البطن تحمل سبعة جراء أو ثمانية، أو بقرة في أحشائها عجل، فإن جوزيف يشعر تجاهها بشيء من القداسة والإجلال، بل أكثر من ذلك، يكاد يعبدها ويطلب بركتها.. ولا عجب فلكل امرئ دين ما، وهذا دين جوزيف. وإذا كان الناس يحملون معتقداتهم الدينية في رؤوسهم فهو يشعر بدينه في صلبه وعضلات فخذيه، وليس الرأس أجلّ قدراً ولا أرفع قيمة. كان هذا لبن الرضاع في أفواه أفراد هذه العشيرة منذ مليون عام، يورثه السلف للخلف، ويمتزج الجميع بالأرض فتتفاعل مع خصبها نفوسهم وتتحد أرواحهم»[١].

(١) نفسه ص ٣٩ وانظر الصفحات ٨٩، ٢٠٣، ٢١٣.

هذا الإيمان الوثني الذي تضيق به المساحة حيناً آخر لكي ما يلبث أن يتمركز عند ظاهرة طبيعية أو شيء من الأشياء.. عند شجرة بلّوط أو صخرة قائمة سوداء فيتخذ منها إلها:«في منتصف تلك الساحة كانت تنتصب صخرة شمّاء في حجم بيت كبير، وتبدو في منظرها هي الغموض والرهبة. وبدا أن يداً ماهرة قد أكسبتها ذلك الشكل، مع أنه لم يكن لها شكل معين تحتفظ به ذاكرة من شاهدها.. وكان يغطّيها الطحلب كثيفاً شديد الاخضرار. كانت الصخرة كأنها مذبح قديم انصهر فتكوّر على نفسه. وفي جانب منها ظهرت مغارة صغيرة سوداء تحرس بابها خمس شجيرات من السرّيس على ضفتيْ جدول يخرج من هناك ويسيل في عرض الساحة العارية رقراقاً ينساب بهدوء الهيكل المقدس، ثم يختفي أثره بين الشجيرات الملتفّة في الطرف الأقصى من الساحة.. وقال جوزيف مخاطباً أخاه: لا تخف إن في المكان قوة وطيبة وجمالاً. هنالك ما يشبه الغذاء الروحي يا توماس، يجوز أن ننساه الآن، ولكننا سنعود إليه عند الحاجة يوماً ما لنتزوّد منه»[١].

ومنذ اكتشاف هذا المكان أصبحت الصخرة، المعتمة، الغامضة، وما يحيط بها من رموز طبيعية معبداً يأوي إليه

(١) نفسه ص ٥١, ٥٣.

جوزيف ليتزوّد منه، ليطرد الخوف والأسى والحيرة«أما إذا كان لك حاجة بسبب فقدان شيء عزيز فإن ذلك المكان هو الذي يجب أن أقصده» (١).

ويتكشّف هذا التوجه الوثني، أكثر، في زيارة أخرى للمكان:«كان الهدوء شاملاً اللهم إلاّ خرير جدول بعيد.. وظل جوزيف يسير إلاّ أن سحابة من الخوف بدأت تلفّ نفسه.. وما لبث أن استولى عليه شعور بالرهبة. كان المكان رهيباً، ولكن فيه قداسة تبعد الخوف الذليل، وتجعل الرهبة إكباراً وتقديراً. ولاحت له الصخرة العاتية في منتصف الساحة.. ولما أن قاربها شعر بما يشعر به صبيّ يسير متجهاً إلى المذبح بين مقاعد كنيسة مقفرة وقد ثبّت عينيه على صور القدّيسين.. ونظر جوزيف إلى الصخرة علّه يستمد القوة والمعرفة، وغادر المكان وهو يشعر بابتهاج عظيم،أما تحقّق له أن روحه من روح الأرض ؟»(٢)

ما الذي يجعل موقف جوزيف هذا قبالة الصخرة لا يختلف بشيء عن موقف العرب الجاهليين، أو أتباع أية ديانة وثنية في العالم وهم يلتمسون من الوثن أو الصنم «القوّة والمعرفة»؛ ولطالما حدثنا الطبري وابن الكلبي وغيرهما عن الأحجار.. عن الأنصاب والأزلام التي كانت تقرّر مصائر الغادين والرائحين.. إن ما شهدته

(١) نفسه ص ٦٥.
(٢) نفسه ص ١٠٨ ، ١١٠ ،١١١.

جزيرة العرب يومها، يشهده الغرب الأمريكي، بل تشهده كل بقعة في العالم يختار فيها الإنسان، جهلاً أو عجزاً، أن يشيّئ المعبود لأنه لم يجد الديانة الملائمة لوضعه وأشواقه التي ترفعه إلى فوق وتضعه في مكانه الحق المناسب له كإنسان.

(٣)

تمركزت وثيقة البطل عند ظاهرتين: البلّوطة القائمة في مزرعته قريباً من البيت، وتلك الصخرة السوداء التي ازداد تعلّقه بها بعد تيبّس البلوطة وموتها: «تحركت أغصان البلوطة الجبارة كأنها تستشعر نسمات الحياة.. بينما كان يشعّ من عيني جوزيف بريق الغبطة والسرور، لأن روح والده قد حلّت في تلك الشجرة فأكسبتها فتوة ونشاطاً.. ورفع يده محيياً البلوطة وقال: يسرّني أن قدمت لزيارتي يا سيّدي الوالد. وهزّ رأسه وضحك من نفسه خجلاً من هذه الأفكار وعجباً من شعور عارم غمره بالقرابة والألفة بينه وبين البلوطة»[١]، لكنه ما لبث أن أكد لجوانيتو، صديقه، أن أباه قد حلّ في الشجرة، وأنه البلوطة نفسها[٢].

وبمرور الوقت أخذ جوزيف يتمسّح بالشجرة، ويناجيها في الأزمات، ويعلّق الطيور المذبوحة قرابين عند فروعها[٣]، ويطعمها لحماً[٤]. كان يعتقد أنها كالأب تحرس الشجرات الصغار

(١) نفسه ص ٣٠.
(٢) نفسه ص ٣١.
(٣) نفسه ص ١١٨.
(٤) نفسه ص ١٣٧.

وتحرس المزرعة. ويوماً لاحظه الأب أنجيلو، قسّيس مدينة (السيدة) المجاورة، يسكب شيئاً من الخمر عند جذورها، فأدرك ما يعنيه ذلك، وقال جوزيف: «ليس هذا حسناً يا بنيّ.. إن المسيح أقدر على تخليص روحك من قوى الطبيعة..» ثم تابع كلامه مشيراً إلى جذور تقاليد وثنية كهذه: «بمثل هذه الطريقة ظل الشيطان يحكم هذه البلاد طيلة آلاف السنين»(١).

كان يضع أسراره بين يديها.. يتسلّل إليها في أعماق الليل كي يهمس عندها بما يدور في نفسه: «سيلد لي طفل يا سيّدتي، وأعدك بأن أضعه بين يديك حين يولد. وشعر جوزيف كأن جذع البلوطة يمد أصابعه ليتلقف الطفل بحنان». البلوطة إذن ستتولى تعميد طفله.. وهي نفسها ستحميه وأهله جميعاً من كل خطر أو خوف: «هنالك عاصفة على وشك الهبوب، أنا أدري أنه لا يمكنني النجاة منها، ولكنك يا سيدي تعرف كيف تحمينا جميعاً» (٢).

وهو يذكر جيداً كيف أن تعبّده الوثني هذا بدأ هيّناً لكنه ما لبث أن اشتدّ قوة حتى كاد يملك عليه عقله فأصبح يشعر بالارتياح والسلوان كُلّما مارسه.. ويحّذره أخوه المسيحي بيرتون: «... ربما تعتقد أن سرّك مكتوم. كلا! لقد راقبتك ورأيت الوثنية تنمو في نفسك فجئت لأحذرك من عاقبتها.. لقد لاحظتك وأنت

(١) نفسه ص ١٣٠.
(٢) نفسه ص ١٣٧.

تنسلّ إلى شجرتك يا جوزيف.. لقد تخليّت عن الرب وسيعاقبك على ذلك.. تعال وصلّ معي وسيعفو المسيح عن معصيتك ويعيدك إلى حظيرته آمناً ولتقطع هذه الشجرة». ويكون جواب جوزيف مزيداً من التشبّث بالمعبود: «أنقذ نفسك أولاً يا بيرتون، فأنت شديد التزمّت وأرجو ألاّ تتدخل في أمور غيرك» (١).

وتلحظ زوجته تعلّقه هذا بالبلّوطة فتسأله: «قل لي لماذا تحب الشجرة إلى هذا الحدّ؟ هل تذكر كيف أجلستني في مجمع أفراعها حين زرت المزرعة لأوّل مرة؟» فيجيبها: «لأنها شجرة ضخمة وجميلة، أحبها لأنها شجرة كاملة حقاً كما أظن». ولا تقتنع إليزابيث، لقد لاحظت ما هو أكثر من هذا، لقد سمعته ليلة يتحدث إليها كما لو كانت شخصاً عادياً، سمعته يخاطبها قائلاً: «سيّدي»(٢)، لكن جوزيف ما لبث أن منحها قناعاته، وفتح الطريق أمامها لكي تنفذ إلى أعماق شخصيته «وعرف أنها فهمته» (٣).

ومن أجل أن يبارك طفله ويحميه أراد أن يضعه في مجمع أفراع البلّوطة وتوسّل إليه أخوه بيرتون ألاّ يفعل، لكن جوزيف أجابه بأنه لا يرى خطيئة فيما يفعل. فاغرورقت عينا بيرتون

(١) نفسه ص ١٣٧ - ١٣٨.
(٢) نفسه ص ١٤٦.
(٣) نفسه ص ١٤٧.

بالدموع وقال: «إنك تسمح للشرّ أن يقدم فأنت تفتح له الباب بعملك هذا، ولن يمرّ ما تفعل دون عقاب» ويضحك جوزيف قائلاً: «إذن دعني أواجه هذا العقاب» .. ويلتفت بيرتون إلى اليزابيث: «اسمعي، إن أخي جوزيف ينكر السيّد المسيح، ويتعبّد على طريقة الوثنيين، فهو يفسد روحه ويسمح بذلك للشر أن يصيبنا». فما معنى تعليق الضحايا على الشجرة، وسفح الدم على عروقها وتقديم كل ما طاب إليها؟ «هل تعتقد أن هذا شيئاً تافهاً؟ لقد رأيتك تنسلّ من البيت ليلاً وسمعتك تحدّث هذه البلّوطة فهل كان ذلك شيئاً تافهاً يا جوزيف؟» فيجيبه هذا: «نعم شيء بسيط لا ضير فيه» فيقول بيرتون غاضباً: «لقد حاولت أن أساعدك، فهل لا زلت مصراً على عدم القسم بألاّ تفعل؟» يجيب جوزيف: « نعم، فلن أقسم على شيء يضيّق حدود حرّيتي لن أفعل» فيعلن أخوه: « إذن أنبذك ولا أبقى ها هنا.. لن أنغمس في شرّ تصرّ على التردّي فيه» [1]. ويغادر بيرتون المزرعة ميمماً وأسرته صوب ساحل المحيط.

وتجيء موجة الجفاف التي تضرب المنطقة لكي تيبّس أعراق البلّوطة، فتذوى وتموت.. « وربّت جوزيف على جذعها فإذا به يقول فجأة: أوّاه، هذه الشجرة ميّتة. لا حياة في شجرتي

(١) نفسه ص ١٥٦ – ١٥٨ .

الحبيبة. ودوّخه شعوره بالخسارة العظيمة فترنح جسمه، وانتابه الذعر مما يجد، تماماً كما انتابه مثله حين أحسّ بفقدان والده.. وأحاطت به الجبال بنظراتها القاسية، لا ودّ فيها ولا حنان، وتزحزحت الأرض من تحت أقدامه، وبدا له كل شيء عدوّاً لدوداً وهو يقف وحيداً أعزل صامتاً ميّت النفس.. وفكّر.. والآن ما العمل؟ إلى أين»[١].

(٤)

وسرعان ما تذكر وثنه الآخر.. إلهه الثاني: إذا كانت البلوطة قد ماتت فثمة الصخرة السوداء«وقال في نفسه: أنا في حاجة إلى الراحة والهدوء إلى الروح التي تغمر ذلك المكان، سأذهب حالاً إلى غابة الصنوبر وأفكر في الأمر قريباً من الصخرة والينبوع»[٢].

وزوجته اليزابيث، اعتقدت هي الأخرى أن الصخرة تمنحها شيئاً هي بأمسّ الحاجة إليه، وها هي ذي تخاطب جوزيف:«لقد أحببت الصخرة أكثر من حبّي لك وللطفل وحتى لنفسي، وأعجز الآن عن مقدار حبّي لها، وتراءى لي أنني دخلت في جوف الصخرة، وكان النهر ينبع مني أنا، فقد كنت الصخرة ذاتها، وكانت الصخرة، لا أدري كيف أقولها، كانت أعزّ شيء في الوجود على قلبي»[٣].

(١) نفسه ص ١٦٣ - ١٦٤.
(٢) نفسه ص ١٦٦.
(٣) نفسه ص ١٧٠ - ١٧١.

وما يلبث المعبود أن يقتل اليزابيث التي سيطر عليها إحساس قاس بالخوف من الصخرة.. نوع من الحلم التسلّطي الذي سعت إلى الفكاك من أسره عن طريق ارتقاء الصخرة وإذلالها، فتزلق قدمها وتسقط على الأرض مستقرة عليها بلا حراك..«وأخيراً نهض جوزيف، فربّت على الصخرة وقال: الآن أنتما اثنان هنا، وسأعرف أين يجب أن أزور. ويعني بذلك أن روح والده وزوجته قد انتقلتا إلى الصخرة،فعليه أن يزورها ينشد السلوان أو يشاركها مقرّهما الأخير» [١]. وتضرب المكان موجة من الجفاف القاسي التي تحصد الزرع والضرع ويلحّ ثوماس على أخيه بالرحيل غرباً بحثاً عن مكان آخر خارج دائرة الجفاف، قبل أن يخسرا كل شيء.. يرفض جوزيف أوّل الأمر عرض أخيه، لكنه ما يلبث أن يجد نفسه مضطراً للاستجابة.. ويرحلا سوية لاكتشاف المكان الجديد، ويجدانه بعد عناء، لكن جوزيف سرعان ما يقرّر العودة إلى أرضه المحترقة رغم كل شيء: «لا أستطيع مبارحة المزرعة يا ثوماس، فهي أرضي: وكان قد تأكد لديه أنه هو نفسه الأرض [٢]، «ورنا ببصره إلى الغابة وقال: الآن صرت وإياك واحداً، لقد اتحدنا، فلنعمل سوية وهبّت الريح من التلال وارتفعت عاصفة من الغبار في فناء الدار، وكان ذلك تكريساً مقدّساً للاتحاد كما فهم جوزيف» [٣].

(١) نفسه ص ١٧٨.
(٢) نفسه ص ٢٠٦.
(٣) نفسه ص ٢١٣.

وبينما رحل ثوماس غرباً بأفراد العائلة كافة، كان جوزيف يمّم وجهه صوب الصخرة لكي يؤدي مراسم الزيارة منفرداً«دخل الحلقة المكشوفة بين أشجار الصنوبر عاري الرأس، احتراماً منه، وواجه الصخرة فارتعش جسده، إلاّ أنه تقدم نحوها ولكن بخشوع.. وأحس حينئذ أنه قد اتحدّ بالصخرة وطحلبها.. وقال: هنا تظل الأرض أمينة من الموت، فهذه الصخرة مركز الحلقة، والماء ينبع من تحتها وهي التي ستحتفظ ببذرة الحياة للأرض حتى يحلّ الشتاء القادم.. لقد جئنا في الوقت المناسب وسنظل ها هنا في أمان من الأرض ولنحفظ لها بذرة الحياة.. لقد أصبح يعتبر نفسه صخرة أخرى، فهو وإياها شخصان متحدان في شخص واحد، وبلفظ الدين أقنومان» (١). ومنذ ذلك الحين «عاش جوزيف في صومعته إلى جانب الصخرة يهبها الحياة من ماء الينبوع، وتهبه الحياة بالطمأنينة التي تدخلها على نفسه.. وهجر بيته إلى حيث يتنسّك إلى جانب الينبوع والطحلب. كان كاهناً وجد الماء والطعام والعبادة فزهد في غيرها» (٢).

وكما كان يفعل الوثنيون القدامى، فإن جوزيف من أجل أن يفجّر الينبوع الذي جفّ ماؤه، ضحّى بعجل عنده علّه يجيء بالماء ولكن دون جدوى(٣). ونراه في آخر الرواية يخرج سكيناً من جيبه

(١) نفسه ص ٢١٨ - ٢١٩.
(٢) نفسه ص ٢٢٠.
(٣) نفسه ص ٢٤٠.

لكي يقطع شرايين رسغه المتألّم فيسيل الدم ويتخلّل ما بين عروق الطحلب.. «وشعر جوزيف بالوحدة تماماً عندما رأى دماءه تسيل، وهو ينقطع حتى عن الغابة نفسها. لقد تحلل واتحدت روحه مع شيء لا يدرك كنهه.. وسمع عويل الرياح خلف حدود الغابة، وبدت له السماء رمادية قاتمة، فتمدّد على الصخرة، ومدّ ذراعه المقطوع، وأخذ ينظر إلى سلسلة الجبال في جسده.. وأخيراً شعر بنفسه خفيفاً، فطار وارتفع في السماء، وحينئذ انصب على الأرض وابل غزير من المطر.. وهمس لنفسه: أنا هو المطر، وأنا هي الأرض، ومن دمي سينبت الحشيش فتثقل به سفوح التلال من جسدي بعد قليل. واشتدت العاصفة فأظلمت السماء من غزارة المطر، لأن جوزيف لم يعد موجوداً»[١].

إنها مفردات الوثنية نفسها، تلتصق بالأرض وتتحلل مع الجسد.. نفس المفردات التي اخترقت النصرانية فأطفأت ألق التوحيد وجعلت من امتزاج الدم بالخبر طقساً مقدساً.

ويمضي شتاينبك إلى ما هو أبعد، فإذا بالمسيحية تعجز عن تلبية حاجات المأزومين، وإذا بالوثنية تلبّي النداء فتفعل ما لم يكن بمقدور تلك أن تفعله لقد قاتلت وجوزيف الجفاف بالطقوس

(١) نفسه ص ٢٤٠ - ٢٤١.

والأضحيات والاتحاد بالأرض، فنزل المطر «وتدفقت مسايل التلال، وامتصّت الأرض ما احتاجت إليه حتى غدت سوداء داكنة من كثرة الرطوبة، وعم الخير (وادي سيّدتنا) وكان كل شيء يفيض بالجود والبركة»[١].

فما الذي فعلته المسيحية؟

«كان الأب أنجيلو خوري كنسية (مدينة السيدة) يجلس في مكتبته يقرأ (تأملات القدّيس برتلميو) عندما ابتدأ سقوط المطر. ولما تزايد هطوله أغلق أبونا كتابه.. وتذكر كيف صلّى من أجل ذلك المطر، فسرته الذكرى، واعتبرها كرامة عند الرب واستجابة من الربّ إليه»[٢].

ومعروف تماماً ما الذي يريد شتاينبك أن يقوله لنا: إن الأب أنجلو يسرق الدور من جوزيف، والمسيحية المعلّقة بالصليب تنتظر، تدّعي القدرة على إنزال المطر، كرامة من الربّ، والذي أنزلها إنما هو اتحاد البطل بالأرض!

(٥)

ومنذ البدايات الأولى للرواية يجعل شتاينبك جلّ أبطاله يرفضون المسيحية ابتداء من الأب الذي يحكي عنه أحد أبنائه:

(١) نفسه ص ٢٤٢.
(٢) نفسه ص ٢٤٢.

«لقد حاولت أن أجعله يصلّي للرب فلم أفلح وقد أزعجني جداً أن كلماته التي فارق عليها الدنيا ودخل في الآخرة لم تكن مسيحية» (٤). وفيما بعد عندما يقرّر بيرتون، الأخ المتديّن، الذهاب إلى مخيّم للتجمع يقع على ساحل المحيط، يقول أخوه ثوماس: «إن بيرتون يأكل الله كما يأكل الدب اللحم في الصيف ليدفئه في الشتاء»[١]

وعندما يتزوج جوزيف ويتم إجراءات الزواج في الكنيسة، يحسّ بالاختناق ويفكر مع نفسه: «ثمة خبث في هذا المكان، لماذا يجب أن نمرّ بكل هذه الإجراءات الحمقاء حتى يثبت زواجنا؟ لقد كنت أظن أنه لا بدّ وأن يكون في الكنيسة جمال الحياة، لكنني لم أجد إلاّ نوعاً سخيفاً من عبادة الشيطان المملّة. وشعر جوزيف بخيبة أمله في بيت الله وجماله، كما دهش من إصرار إليزابيث على ضرورة هذه المراسيم التافهة قبل أن تدخل في زوجيته» وعند سماع الأجراس وهما يغادران الكنيسة قال: «ها هو الله قد جاء متأخراً إلى عرسنا»[٢].

ويُدعى الأب أنجيلو إلى احتفال ديني في المزرعة، وكان لا بدّ وقد وافق على الحضور، أن يحمل معه مقدّساته لإقامة القداس هناك: «كان على بغل ضخم قد ربط إلى (حياصته) رسن

(١) نفسه ص ٦٣.
(٢) نفسه ص ٧٨.

(كديش) سمين عليه المذبح والكنيسة والصليب وربما بيت لحم! وكان خلفه ولدان على حمار صغير. وأسرع الأب أنجيلو إلى العمل ففرد القداس على المذبح وأشعل الشموع، وصفع الولدين لتتفتح عقلياتهما فينشطا ويأتياهُ بما يطلب. ثم فرد حاجياته فكانت صورة للعذراء وطفلها من حولها القدّيسون والملائكة بأجنحتهم المذهبة.. كل ذلك من الخشب الرقيق بحيث يكون سهل الطي بفضل فصالات صغيرة أتقن الأب دهانها فلا تبين فتشوّه رأس المسيح ولا ركبة العذراء إطلاقاً»(١).

ويصف شتاينبك الأب أنجيلو بأنه كان«رجلاً صارماً فيما يتعلق بأمر الكنيسة. ولكنه ما أن تنقضي مهمته مع ربه حتى يعود لطيفاً طلق اللسان بشوش الوجه، وأحياناً مليح النكتة أيضاً. فحين يحمل بيده قدحاً من النبيذ ويمتلئ فمه بشرائح اللحم، لن تجد من تسبق عيناه عينيه في الغمز واللمز»(٢).

وتتوالى الضربات الساخرة بالمسيحية وطقوسها عبر الرواية كلها، حتى إذا بلغنا خاتمة المطاف، التقينا بجوانيتو صديق البطل يسأله: هل فكرت في رؤية الأب أنجيلو؟ فيسأله جوزيف بدوره:

«تعني الخوري؟ لماذا أقابله؟

---

(١) نفسه ص ١٢٨.

(٢) نفسه ص ١٢٩.

- لا أدري لم، ولكنه رجل عاقل حكيم ومقرّب من الرب.

- وماذا باستطاعته أن يفعل؟

- لا أدري

- وماذا أستطيع أن أطلب منه؟ وما الذي عنده حتى يعطيني منه؟

- لا أدري، ولكنه يمكن أن يصلّي من أجلك!

- وهل سيكون ذلك ذا نفع لي يا جوانيتو؟»[١].

ومرة أخرى يعرض عليه جوانيتو أن يقابل الخوري: «ستعود أكثر راحة وأهدأ شعوراً، إذ مهما كان اعترافك أمامه قصيراً فإنه يجعلك تشعر بالراحة.

- لست من طائفة تلك الكنيسة يا جوانيتو، ولا يمكنني أن أعترف

- لا بأس فالخوري يقابله كل الناس

- على كلٍّ، ما دام الماء آخذاً في الارتفاع فلا حاجة لمقابلة الخوري»[٢].

ويستجيب جوزيف أخيراً لتوسّلات صديقه، ويزور الأب أنجيلو.

«- جئت أسألك أن تصلّي طالباً المطر، فأنا من أهل فيرمونت وقد انتشرت عن كنيستك إشاعات كثيرة هناك.

---

(١) نفسه ص ٢٢٧.

(٢) نفسه ص ٢٢٧.

- نعم أعرف ما يشيعونه.

- الأرض تموت الآن لاحتباس المطر، فصلّ من أجله أيها الأب، هل فعلت ذلك سابقاً؟

وشعر الأب أنجيلو أنه أخذ يفقد بعض ثقته بنفسه وقال:

- سأعينك يا ولدي في أن تصلّي من أجل روحك، أما المطر فسينزل، لقد أقمنا قدّاساً وسينزل المطر.

- وكيف تعرف أنّ المطر سينزل، والأرض تموت الآن أيها الأب؟ وظهر أن جوزيف يكاد يغلبه على نفسه فقال حانقاً:

- روحي! إلى الجحيم بها! أنا أقول لك إن الأرض تموت، فصلّ من أجل الأرض لا من أجل روحي.. كان علي أن أعرف أين يجب أن أكون الآن، سأذهب إلى الصخرة وأنتظر» (١)

ومن عجب أن أنجيلو نفسه تهتز ثقته بنفسه وإيمانه، وأخذ يفكّر:«في قوّة تأثير الرجل وشخصيته الطاغية، ثم نظر إلى صليب معلّق فوق رأسه وقال: الحمد لله أن ليس لهذا الرجل رسالة يبلغها، الحمد لله على أنه لا يطلب العظمة والمجد وإلا لكان الناس آمنوا به وجدّف قائلاً: وإلاّ لظهر مسيح جديد في الغرب (٢).

(١) نفسه ص ٢٣٢ - ٢٣٣.
(٢) نفسه ص ٢٣٣.

وليس ثمة صورة أقدر من هذه على التعبير عن اهتزاز المسيحية، بل هزيمتها إزاء وثنية جوزيف، فالذي سينتصر على الجفاف.. الذي سينزل المطر هو تضحية جوزيف واتّحاده بالأرض، وليس صلاة الخوري وطلبه النجدة من السماء!

(٦)

يبدأ (سد هارتا) رحلة البحث الصعب عن القناعة والائتمان من بيئة عائلته البرهمية.. حياة الدعة والثراء والعبادة المسترخية التي تحاصرها تقاليد الطبقة العليا، وإلفها، واعتيادها.

الاستحمام المقدس، والقرابين المقدسة، وأحاديث العلماء.. الأب الذي يحبّ ابنه ويرجو له أن يصير عالماً عظيماً.. راهباً.. أميراً بين البراهميين.. الأم التي تزدهي حين تراه يمشي.. والفتيات اللواتي يتململ الحب في قلوبهن حين يصير صبياً.

لكن سدهارتا نفسه لم يكن سعيداً.. بدأت بذور الاستياء والقلق والحزن تنمو في نفسه، فلم يجد في هذا كلّه شيئاً، وراح يكثر من التأمّل، واعترف لصديقه غوفنيدا بما يعتلج في أعماقه.. إنه يريد أن ينسلخ عن هذا كلّه وأن يذهب للبحث عن الحقيقة. وعندما اجتاز المدينة عدد من النسّاك المتجولين (السامانات) قرر أن يلتحق بهم، حيث محاولة قتل الجسد وإنكار الذات والتأمل.. وقال له أبوه بعد إذ يئس من إعادته إلى

الحظيرة: «ستذهب إلى أعماق الغابة وتصير سامانا. إذا ما وجدت نعيماً في الغاية، عد وأخبرني، إذا ما تحرّرت من الوهم أقفل راجعاً، وسوف نقدم القرابين مرة أخرى إلى الآلهة معاً..» (١).

«أعطى سدهارتا ملابسه إلى فقير براهمي على الطريق ولم يستبق غير مئزره ورداء بلون التراب. لم يكن يأكل أكثر من مرة واحدة في اليوم ولم يطبخ طعاماً على الإطلاق.. صام ثمانية وعشرين يوماً.. اختفى اللحم من على ساقيه وخدّيه.. انعكست في عينيه المتّسعتين أحلام غريبة. طالت أظافر أصابعه النحيفة وظهرت في ذقنه لحية كثة وخشنة. أصبحت نظرته باردة حين يصادف النساء، تنعقص شفتاه ازدراءً حين يمر عبر مدينة أناس أنيقي الملبس. رأى تجاراً يتجارون، أمراء يذهبون إلى الصيد، مفجوعين ينتحبون على أمواتهم، عاهرات يعرضن أنفسهن، أطباء يعاينون المرضى، رهباناً يحددون يوم البذار، عشاقاً يمارسون الحب، أمهات يهدهدن أطفالهمن، وكل ذلك ما كان جديراً بنظرة عابرة. كل شيء يكذب، نتانة أكاذيب. كل ذلك كان صوراً للحواس، للسعادة والجمال. كل ذلك مقدّر عليه الفناء. كان للعالم مذاق مرير كانت الحياة ألماً. إن لسدهارتا هدفاً واحداً لا غير: أن يصبح خلواً من العطش، من الرغبة من الأحلام، من المتعة والحزن أن يدع الذات تموت. أن لا يكون بعد ذاتاً، أن يجرب

(١) هيرمان هيسه : سدهارتا ص ١٥.

سلام القلب الفارغ، أن يمارس الفكر النقي، ذلك هو هدفه. حينما تكون الذات قد قهرت وماتت، حينما تصمت جميع الأهواء والرغبات، عندها يجب أن يستيقظ الآخر، الكائن الأعمق الذي لم يعد ذاتاً بعد -السرّ العظيم!» (١).

وبعد إلغاء الذات وتدميرها تبدأ رحلة التناسخ الدوري والحلول المكرور.. تعلّم «على يد أكبر السامانات سناً، مارس إنكار الذات والتأمل طبقاً لقواعد السامانا. قتل حواسه، قتل ذاكرته، انسرب خارج كيانه في آلاف الأشكال المختلفة. كان حيواناً، جثة، صخرة، شجرة، ماءً، وكل مرة يعاود الاستيقاظ. تسطع الشمس أو القمر، يعود ثانية ليكون ذاتاً، ينقلب إلى دورة الحياة.. يشعر بعطش جديد.. تعلم سدهارتا العديد من الطرق في إضافة الذات، سافر على أطول طريق إنكار الذات عبر الألم، عبر المعاناة الطوعية وإخماد الألم، عبر الجوع، عبر العطش والإرهاق.. فقد ذاته آلاف المرات، ولأيام عديدة كان يسكن بعدها في اللاكينونة. لكن رغم أن الطرق قد أخذته بعيداً عن الذات، إلاّ أنها في النهاية كانت تقوده عائدة دائماً إلى الذات. رغم أن سدهارتا قد فرّ من الذات آلاف المرات، سكن في اللاشيء، سكن في الحيوان والحجر، فالعودة كانت محتومة. كانت الساعة

(١) نفسه ص ١٦ - ١٧.

محتومة حين يكون عليه أن يجد نفسه ثانية.. ويكون مرة أخرى ذاتاً وسدهارتا، مرة أخرى يتعذب من دورة الحياة الشاقة» (١).

ويوماً يسأل صديقه غوفيندا الذي صار سامااناً هو الآخر: «ما تراه يا غوفيندا أتظن بأننا قد تقدّمنا؟ هل «أدركنا بغيتنا؟» (٢).

إن القلق ينفجر مرة أخرى، ومعه إحساس مرير باليأس واللا اقتناع.. ويتساءل سدهارتا: «ما هو التأمل؟ ما يكون هجر الجسد، ما الصوم، ما مسك النفس؟ إنه لفرار من الذات، إنه لهرب وقتي من عذاب الذات. إنه لتسكين وقتي للألم وحمق الحياة. إن من يسوق الثور يقوم بنفس الفرارات هذه، يأخذ هذا المخدّر الوقتي حين يعبّ عدداً من طوس شراب الرز أو حليب جوز الهند في الحان. عندها لن يكون شاعراً بذاته، لن يعود شاعراً بألم الحياة، عندها سيمارس هرباً وقتياً. سيجد ما يجده سدهارتا وغوفيندا حين يهربان من جسديهما بتمارين طويلة ويسكنان في اللاذات» (٣).

ويسأل صديقه مرة: «أنكون على الطريق الصحيح؟ هل نحصل على المعرفة؟ هل نتقدم من الخلاص؟ أم أننا ربما نكون ماضين في حلقات، نحن الذين نأمل أن نهرب من الدورة؟» ثم ما

(١) نفسه ص ١٧ - ١٩.
(٢) نفسه ص ١٩.
(٣) نفسه ص ١٩ - ٢٠.

يلبث أن يعلن لغوفيندا عن قراره: قريباً يا غوفيندا، سيترك صديقك طريق السامانات الذي طالما سافر عليه معك. إنني أعاني من العطش يا غوفيندا، وعلى هذا الطريق السامانى الطويل لم يتضاءل عطشي. لقد عطشت دائماً للمعرفة. كنت على الدوام مليئاً بالأسئلة. سنة بعد سنة ساءلت البراهميين.. ربما تساوى في الخير، يا غوفيندا، تساوى في الذكاء والقدسية، لو أنني ساءلت الكركدن والشمبانزي. لقد قضيت وقتاً طويلاً ولم أنته بعد، لأجل أن أعرف هذا الشيء: أن ليس بمقدور الإنسان أن يتعلم شيئاً. فهناك، كما أعتقد، في جوهر كل شيء ما لا نستطيع أن نسمّيه تعلماً. يا صديقي ليس هنالك غير معرفة واحدة، وهي في كل مكان.. في داخلي وداخلك وداخل كل كائن، وبدأت أؤمن أن هذه المعرفة لا تملك عدواً أسوأ من رجل المعرفة، أسوأ من التعلّم» (١).

(٧)

وبعد سنوات ثلاث مضت على كلا الشابين مع السامانات، سمعا خبراً. لقد ظهر شخص يدعى غوتاما، النيّر، البوذا: «شخص قهر في داخله أحزان العالم وأوصل دورة معاودة الولادة إلى نقطة وقوف. تجوّل عبر البلاد واعظاً، محاطاً بالمريدين،

(١) نفسه ص ٢١.

عـديماً من الثـروة، عـديماً من البـيت، بلا زوجـة، يرتدي الرداء الأصفر للنسّاك، إنما بجبهة شامخة، رجل مقدّس، انحنى قدّامه البراهميون وأصبحوا تلاميذ له»[١].

وقال المؤمنون به إنه يمتلك معرفة عظيمة، وقد بلغ النرفانا ولم يعـد على الإطلاق إلى الدورة، إنه لم يعـد يندفع في المجرى المضطرب للأشكال.

وإذا وجد غوفيندا بغيته في القدّيس، فإن سدهارتا لم يكن مهتماً بالتعاليم «إنه لا يجد بأنها ستعلمه أي شيء جديد»[٢]. لقد أعـجب بالرجل إلى حدّ التـقـديس.. وسـمـعـه وهو يتـحـدث عن الخـلاص.. لكن مـا كان يفصله عنه إنما هو حـاجـز التعـاليم.. إنه يريد أن يكتشف الحقيقة بنفسـه، أن يعيشها بكل خلية فيه لا أن يعلّمـه إياها الآخرون.. وإذ تقبلها غوفيندا وتوسّل إليه أن يتقبلها هو الآخر فإنه تردّد كثيراً وألحّ على صديقه أن يمضي في طريقه الذي اختاره، أمـا هو فسيتركه مواصلاً الرحيل. وقال لغوفيندا: «كن مطمئناً يا غوفيندا. إن تعاليم الكائن النيّر جيدة جداً. كيف بمقدوري أن أجد عيباً فيها؟»[٣] لكنه كان يجد أن «الحكمة غير قابلة للتوصيل. الحكمة التي يحاول حكيم إيصالها، دائماً تبدو

(١) نفسه ص ٢٢.
(٢) نفسه ص ٢٨.
(٣) نفسه ص ٣١.

خرقاء.. المعرفة يمكن أن توصل، إنما ليس الحكمة»[١]. وكان يجد في الانتماء لدعوة بوذا ازدواجية من نوع ما بين الفعل والكلمة، بين الممارسة الذاتية والتعاليم التي تجيء من الخارج: «ها نحن نجد أنفسنا داخل متاهة من المعاني» قال سدهارتا لصديقه، «داخل تصادم الكلمات، لأنني لن أنكر أن كلماتي عن الحب هي في تناقض ظاهري مع تعاليم غوتاما. ذلك بالضبط هو عدم ثقتي بالكلمات كثيراً، لأنني أعرف أن هذا التناقض هو وهم.. حقاً كيف كان بمقدور (البوذا) ألاّ يعرف الحب؟ مع هذا المعلم العظيم، فإن الشيء بالنسبة لي هو أعظم أهمية من الكلمات، أفعاله وحياته أكثر أهمية بالنسبة لي من نظرياته، ليس بالكلام أو الفكر انظر إليه كرجل عظيم، إنما في أعماله وحياته» [٢].

ومرة قال لغوتاما (البوذا): «أيها الكائن النيّر، ما هو فوق كل شيء هو إعجابي بتعاليمك. كل شيء واضح وصحيح بشكل تام لقد أظهرت العالم كسلسلة كاملة غير مفصومة، مرتبط بعضها ببعض بالعلّة والأثر.. من المؤكد أن قلب أي براهمي سيخفق بسرعة أكبر حين ينظر إلى العالم من خلال تعاليمك مترابطاً تماماً، دون شرح.. إنما حسب تعاليمك، فإن هذه الوحدة والنتيجة المنطقية لجميع الأشياء مفصومة في موضع واحد. خلال منفذ

(١) نفسه ص ١١٦.
(٢) نفسه ص ١٢٠.

صغير يتدفق إلى عالم الوحدة شيء غريب، شيء جديد، شيء لم يكن موجوداً من قبل ولا يمكن إظهاره أو تأكيده: ذلك هو مبدؤك في السموّ على العالم، في الخلاص. مع هذا المنفذ الصغير.. من ناحية ثانية فإن القانون المفرد والأبدي للعالم يتهشّم ثانية. سامحني إذا ما رفعت هذا الاعتراض»[١] ولطالما كان سدهارتا يردّد أن الغوتاما، هذا الكائن النيّر، ذا المعرفة التي لا حدود لها، قد وجد طريقه، من خلال تنفيذ الاكتشاف بنفسه، أما « آلاف الشبان الذين يصغون إلى تعاليمه كل يوم، ويتبعون تعاليمه كل ساعة، فإنما هم جيمعاً أوراق ساقطة. إنهم لا يمتلكون الحكمة والدليل في داخلهم»[٢].

(٨)

وباتجاه معاكس تماماً لإلغاء الذات عبر سنوات طويلة من الانتماء للسامانيين الزهاد، يرجع سدهارتا إلى الذات لكي يحصّنها ضد الدمار، علّ ذلك يمنحه ما كان يرجوه«وسأل نفسه: ما الذي كنت تريد تعلّمه من التعاليم والمعلمين؟ ورغم أنهم قد علّموك الكثير، ما الذي لم يكن في مقدورهم تعليمك إياه؟ وفكّر: إنها الذات، شخصيتها وطبيعتها هما ما آملت تعلّمه. أردت أن

(١) نفسه ص ٣١ - ٣٢.
(٢) نفسه ص ٦٢.

أخلص نفسي من الذات، أن أقهرها، إنما لم يكن بمقدوري قهرها، لا أستطيع إلاّ أن أخدعها، لا أستطيع إلاّ أن أفرّ منها، أن أختبئ منها. في الحق ليس هنالك من شيء في العالم استغرق أفكاري قدر ما استغرقته الذات، هذا اللغز، في أنني أحيا، في أنني واحد وأنني منفصل ومختلف عن أي شخص آخر، في أنني سدهارتا، وليس هنالك من شيء في العالم عرف عنه أقل مما أعرف عن نفسي، عن سدهارتا.. أجل لن أحاول الفرار من سدهارتا بعد. لن أكرّس أفكاري إلى أحزان العالم بعد. لن أشوه وأحطم نفسي لأجل أن أجد سرّاً خلف الأنقاض. لن أدرس اليوغا- فيدا، الآثار غارفيدا، أو التنسّك، أو أي تعاليم أخرى بعد. سوف أتعلم من نفسي، أكون تلميذ نفسي، سأتعلم منها سرّ سدهارتا» (١).

ويمضي سدهارتا مندفعاً أكثر فأكثر لكي ينتمي إلى العالم من جديد، ولكي يفسح مجالاً للحس الذي قتلته السامانا وتجاوزته تعاليم البوذا.. لم تكن الذات، والأحاسيس، والعالم تعني شيئاً لسدهارتا يومذاك، كان ينظر إليها بارتياب كحجاب وهمي سريع الزوال أمام ناظريه، كشيء ملعون غير جدير بالتأمل لأنه لم يكن واقعياً«لأن الواقع يكمن في الجانب الآخر من المرئي. أما

(١) نفسه ص ٣٦ - ٣٧.

الآن فإن عينيه تتلكآن على هذا الجانب، إنه يرى ويميز المرئي إذ صار ينشد مكاناً له في هذا العالم. كان العالم جميلاً عندما يرى بهذا الشكل، دون أي قصد، بسيطاً جداً.. ومبهجاً.. القمر والنجوم، الجدول، والشاطئ، الغابة، والصخرة.. كل ذلك وجد قبلاً ولم يكن رآه أبداً، فلم يكن حاضراً.. الآن أصبح حاضراً ومنتمياً له..»[١].

ومنداحاً أكثر فأكثر باتجاه الانتماء للعالم المنظور، يدخل سدهارتا نسيج الحياة الاجتماعية، ويعيش «وسط الناس» ويمارس التجارة بنجاح ملحوظ، وتتكدس الأرباح بين يديه، فيندفع أكثر باتجاه الاستجابة لنداءات الحسّ والمتعة، ويمارس فنوناً من الميسر والجنس والشراب، إلى حدّ الاستنزاف، أليس هو يريد أن يختبر «التجربة» بنفسه؟ «لقد تعلّمت الكثير وتمتعت بالكثير»[٢].

لكنه ما يلبث أن يدرك أن اندفاعه هذا باتجاه الحسّ، والجنس، والمجتمع، والتكاثر، والعالم المنظور، لم يقده إلى شيء، لم يمنحه ما كان يتوق إليه وأنه لم يفعل سوى أن سوّاه بالناس الآخرين، الناس العاديين، أولئك الذين «يعيشون بطريقة شبه

(١) نفسه ص ٤٠ - ٤١.
(٢) نفسه ص ٥٩.

صبيانية، أو شبه حيوانية، وذلك ما أحبّه وازدراه في الوقت نفسه. لقد رآهم يكدّون. رآهم يعانون ويشيبون لأجل أشياء ما كانت تبدو له جديرة بذلك..» (١).

وبغتة يرى بوضوح «أنه يمضي في حياة غريبة، وأنه يفعل كثيراً من الأشياء التي لم تكن غير لعبة. بأنه مرح تماماً وفي بعض الأحيان يمارس المتعة، لكن الحياة الحقيقية تمضي بعيداً عنه دون أن تمسّه» (٢). لقد عاش سدهارتا ولفترة طويلة حياة الدنيا «دون أن ينتمي إليها. وحواسه التي أماتها خلال سنواته السامانية المتحمسة قد تيقظت ثانية. لقد خبر الثروة. خبر الهيام والقوة، لكنه لوقت طويل بقي سامانا في أعماقه.. وبشر الدنيا، البشر الاعتياديون ظلوا غرباء بالنسبة له، مثلما كان هو بعيداً عنهم(٣)، وهكذا «جعلت الدنيا والعطالة تتسربان إلى روح سدهارتا، أشبعتا روحه ببطء، جعلتاها ثقيلة، منهكة، قادتاها إلى النوم»(٤).

وعندما يلتقي بصديقه غوفيندا، عَرضاً، يقول متألماً: «إن عجلة المظاهر تدور بسرعة يا غوفيندا. أين هو سدهارتا البراهمي؟ أين هو سدهارتا السامان؟ أين هو سدهارتا الغنيّ؟ إن ما هو زائل يتغيّر بسرعة وأنت تعرف ذلك»(٥).

---

(١) نفسه ص ٦٠.
(٢) نفسه ص ٦١.
(٣) نفسه ص ٦٣.
(٤) نفسه ص ٦٤.
(٥) نفسه ص ٧٨.

(٩)

ثم ما تلبث أن تجيء حلقة البحث الأخيرة عن المصير في رواية هيسه عندما يتخلى سدهارتا عن حياته هذه، عن متعه وملذاته وتكاثره بالأشياء.. ويهيم على وجهه كرة أخرى علّه يعثر على قناعته الضائعة وانتمائه المفقود.

في هذه الحلقة يلتقي هيسه، بشتاينبك، وسدهارتا بجوزيف، والصخرة السوداء التي تمنح المطر بالنهر الذي يصير معلّماً.. هنا يقف الروائيان ببطليهما في دائرة الوثنية التي تجعل من الصخور والأنهار آلهة تعطي ورموزاً يتقرّب إليها.. بل يتجاوزان ذلك إلى حالة من الحلول التي تنشد الخلاص في الاتحاد مع الظواهر والأشياء، والتلاشي فيها.

وإذا تكون هذه الحلقة هي خاتمة الرحلة بالنسبة لبطل هيسه فإنه سيلتقي بالضرورة مع بطل شتاينبك في المصير، وسيجد جوزيف الأمريكي وسدهارتا الهندي خلاصهما في الوثنية!: «نظر بسعادة إلى النهر الجاري. ما اجتذبه نهر بقدر ما يجتذبه هذا النهر بتاتاً. ما وجد على الإطلاق صوت ومظهر الماء الجاري بمثل هذا الجمال.. بدا له وكأن النهر قد امتلك شيئاً خاصاً ليخبره به، شيئاً لم يكن يعرفه، شيئاً ما زال ينتظره. إن سدهارتا قد أراد أن يغرق

نفسه في هذا النهر، سدهارتا العجوز، المنهك، اليائس، كان سيغرق فيه اليوم. شعر سدهارتا الجديد بأعمق الحب لهذا الماء الجاري وقرّر ألا يتركه سريعاً مرة أخرى»[١].

في اللحظة الأخيرة يخلّصه النهر من الانتحار ويعطيه السكينة والرضا ويمنحه الوعود والتعاليم: «لكم كان شاكراً له! وفي قلبه سمع الصوت المتيقظ الآن يتكلم، وقد قال له: (أحب هذا النهر، ابق إلى جانبه، تعلّم منه!) أجل إنه يريد سيقدر على فهم الكثير الأكثر، العديد من الأسرار، كل الأسرار..»[٢].

ويقول له فاسوديفا صاحب العبّارة التي تجتاز النهر صباح مساء: «لقد علّمني النهر أن أصغي، وسوف تتعلم منه أيضاً. إن النهر ليعرف كل شيء، وبمقدور الإنسان أن يتعلم كل شيء منه...»[٣]. ولقد تعلّم منه سدهارتا باستمرار «تعلّم منه كيف يصغي، بقلب ساكن، بانتظار، بروح منفتحة، بلا ضيق، بلا رغبة، بلا حكم، بلا آراء»[٤]. ومرة أخرى، حين ارتفع النهر عقب الفصل الممطر وهدر بقوة قال سدهارتا مخاطباً فاسوديفا: «أليس صحيحاً يا صديقي أن النهر يملك العديد جداً من الأصوات؟ أليس له صوت الملك، صوت المحارب، صوت الثور، صوت الطير الليلي، صوت امرأة حامل ورجل

(١) نفسه ص ٨٣.
(٢) نفسه ص ٨٤.
(٣) نفسه ص ٨٨.
(٤) نفسه ص ٨٩.

في حسرة، وآلاف الأصوات الأخرى؟» أومأ فاسودفا: «إن أصوات جميع المخلوقات الحية توجد في صوته»بينما واصل سدهارتا «أية كلمة ينطق حين ينجح الإنسان في سماع جيمع أصواته العشرة آلاف في الوقت نفسه؟»(١).

إننا هنا بإزاء بلّوطة جوزيف التي تعد وتعطي.. بإزاء صخرته السوداء التي تنزل المطر.. بإزاء الشجرة والصخرة والنهر، وهي تتحدث بأكثر من صوت، تملك القدرة على الخلق والعطاء.. إنها دائرة الوثنية نفسها التي نذر القدماء لآلهتها النذور وتقرّبوا إليها بالقرابين. وسواء كان هذا الذي يتحدث، ويخلق ويعطي صنماً أم وثناً، سواء كان شجرة أم صخرة أم نهراً، فالأمر سواء.. إنها محاولة للنزول من فوق، من المستوى العالي الذي أريد للإنسان، بالتوجّه إلى الله الواحد الأحد جلّ في علاه، إلى منخفضات التعدّد والشيئية والجهل والخرافة.. وسواء كان الذي يمنح الظواهر الطبيعية والأشياء القدرة على التألّه، ويمنحها الفرصة للوعد ولتشكيل المصير.. إنسان في أسفل السلّم البشري أم أديب مبدع في القمة، فإن الأمر سواء، والجاهلية هي الجاهلية ما دامت تمارس أشدّ أنواع الظلم للحقيقة الكونية بإنكار وحدانية الخالق، بل بإنكار وجوده أحياناً، والنزول إلى تعدديّات الأصنام والرموز والأوثان.

---

(١) نفسه ص ٩٠ .

وغالباً ما جلسنا معاً في المساء: سدهارتا وفاسوديفا، على جذع الشجرة بجانب النهر «وأصغيا معاً بصمت إلى النهر، الذي لم يكن لهما مجرد ماء، إنما صوت الحياة، صوت الكينونة، صوت الصيرورة الأبدية. وأحياناً كان يحدث وأنهما إذ يكونان مصغيين للنهر، يفكران معاً بالأفكار ذاتها عن الموت أو الطفولة.. وحين يخبرهما النهر شيئاً حسناً في اللحظة ذاتها، ينظر كل منهما إلى الآخر كلاهما يفكر بالفكرة ذاتها، كلاهما سعيد بالإجابة نفسها عن السؤال نفسه»[١].

ولطالما جلس سدهارتا، الساعات الطوال، يصغي إلى النهر لكي يخبره بالكثير «ويملؤه بالأفكار العظيمة،بأفكار التوحّد»[٢]. ومثل جوزيف بطل شتاينبك، فإن سدهارتا يمضي في وثيته وشركه خطوة أخرى باتجاه التناسخ والحلول والاتحاد، هنالك حيث يصير الإنسان نهراً ويغدو هذا إنساناً.. أكثر من ذلك، إنه قد يصبح الربّ نفسه.. الأبدية ذاتها: «وإذ مضى فاسوديفا في حديثه واعترافه، شعر سدهارتا بتزايد شديد أن هذا الشيخ لم يعد فاسوديفا بعد، لم يعد رجلاً يصغي إليه، شعر أنه كان يشرب اعترافه مثل شجرة تشرب المطر، إن هذا الرجل كان هو النهر نفسه، إنه كان الرب ذاته، إنه كان الأبدية ذاتها.. إنه الآن أصبح ينظر إلى فاسوديفا كما تنظر الناس إلى الآلهة..» [٣].

---

(١) نفسه ص ٩٠ - ٩١ .
(٢) نفسه ص ٩٦.
(٣) نفسه ص ١٠٩ - ١١٠.

ليس النهر وحده، ولكنها قطعة الحجر التي كان وثنيو العرب -يوماً- يعبدونها ويحملونها معهم في الأسفار:«هذا الحجر هو حجر، إنه حيوان أيضاً، إله وبوذا. إنني لا أحترمه وأحبّه لأنه قد كان شيئاً وسيصير شيئاً آخر، ولكن لأنه منذ زمن طويل مضى كان كل شيء، فإنه سيبقى دائماً كل شيء بالفعل. إنني لأحبّه لسبب واحد: لأنه حجر، لأنه في هذا اليوم وفي هذه اللحظة يبدو لي حجراً»(١).

وبعد رحلته الطويلة المعذبة، يلتقي سدهارتا أخيراً بقدره، كما التقى جوزيف من قبل. فها هنا تحت مظلّة الحلول في الطبيعة، والاتحاد مع الظواهر والأشياء بحد ذاته، ويحظى بائتمانه الضائع وخلاصه المنشود: « توقف عن القتال ضد قدره. لقد سطع في وجهه صفاء المعرفة، صفاء من لم يعد محاصراً بتصادم الرغبات، من قد وجد خلاصاً، من هو في انسجام مع جريان الأحداث، مع جريان الحياة، مليئاً بالتعاطف والحنوّ، مسلّماً نفسه إلى الجريان، منتمياً إلى وحدة كل الأشياء»(٢).

(١٠)

ما يفرّق بين بطليّ شتاينبك وهيسه أن أولهما يختار الوثنية في وقت مبكر.. منذ لحظات التشكل الأولى للنصّ الروائي. أما

(١) نفسه ص ١١٨.
(٢) نفسه ص ١١٢.

الآخر فإن اختياره يجيء في خاتمة المطاف، بعد رحلة طويلة من البحث، والمعاناة، وبعد تقلّب مرير بين المذاهب والانتماءات.

لعلّ السبب يرجع إلى تسطّح الحياة الأمريكية وتضحّلها الروحي وفقر خبراتها الدينية، يقابلها ما يبدو عمقاً في الحياة الروحية في الهند. في العالم القديم عموماً.. تلك الطبقات المتنوعة من التجربة.. ذلك الغنى والخصب في الخبرة، بغض النظر عن قربه أو بعده عن الحق، وعن موازاته للحقيقة أو ارتطامه بها.

وثمة تقابل من نوع آخر، ولكنه يتحرك في الاتجاه نفسه.. إن وثنية جوزيف تتميز بنوع من المباشرة، بينما تتجاوز مباشرتها لدى سدهارتا.. تتكشف عند جوزيف بأكثر مما يجب، بينما تتوارى عند سدهارتا بعض الشيء.

لعلّه الفضاء الروحي ما يدفع إلى الموقفين.. الزمن والمكان الأمريكي، لا سيما في بدايات التشكل الأولى في عرض القارة الجديدة، هو غير الزمن والمكان الهندي ذي العمق التاريخي والخبرات الغنية والتجارب الموصولة التي سبرت غور الجسد، والعقل، والروح. ولعل هذا ما يغري «المفكر» و«الفنان» الغربي -أحياناً- بالبحث عن ضالته في الساحة الهندية.. في ركام أديانها وفلسفاتها وخبراتها.. إنه وقد فقد بطانته الروحية.. تخلّى عن استناده الديني.. أحسّ بأنه مقطوع الجذور، وبأنه في

أمس الحاجة إلى أن يتجذّر في العالم والكون كرة أخرى، وإلاّ غدت فرصة حياته المتفردة عبثاً لا معنى له ولا طائل وراءه.

والخبرة الهندية بإنكارها، في حالات كثيرة للجسد، بقتلها للحس، بإماتتها للغريزة، تشبه النصرانية وتلتقي معها عبر أكثر من جسر، ولعل هذا ما يمنح الغربيين دافعاً مضافاً إلى الرحيل صوب القارة العتيقة لكي يعثروا على ضالتهم هناك. ثم إن التركيز العقلي للفلسفات الهندية يلبسها رداءً خادعاً، ويوهم الغربي الذي يسعى لتجاوز بوار الحياة الغربية وتضحّلها، بأن هذا الإيغال العميق في خفايا العقل والوجدان والروح يمكن أن يمنحه شيئاً ويعده بالمطلوب.

بينما في الطرف الآخر من العالم القديم نفسه، يقف الإسلام، هذا الدين المتفرّد، بكل عمقه وامتداده معاً، بكل إيغاله وتوازنه في الوقت نفسه، بكل استجابته لمطالب الإنسان العقلية والجسدية والروحية والوجدانية والحسّية في آن واحد.. وبكل واقعيته التي تعترف وتتعامل مع الإنسان، هذا الكائن الفريد، بجوانبه كافة، دون أن تحكم بالنفي أو التجاهل أو الإعدام، على هذه المساحة أو تلك، من تكوينه المعقد المتشابك.

إنه يرفض الأحادية فيمنح الروح والجسد خبزهما اليومي، ويرفض تدمير الذات.. يطلق العقل لكي يرحل في كل لحظة عبر بوابات الكون باحثاً منقباً متأمّلاً.. يعطي ضرورات الحياة

الاجتماعية فرصتها كذلك للتحقّق ها هنا حيث يلتقي الروحي بالجسدي، والفردي بالجماعي، والمغيّب بالمنظور، والأخروي بالدنيوي، والسماء بالأرض، والمطلق بالمحدود.. ها هنا حيث يصير الانتماء لهذا الدين فرصة للتحقّق على كافة المستويات وفي مختلف الاتجاهات.. فرصة للائتمان الذاتي.. والقناعة.. والنشدان.. والتوازن.. والتعالي.. فرصة لتجاوز السكون، والحركة المستمرة على مستوييْ الذات والعالم من أجل المزيد من تحصين الذات عمقياً ضد عوامل الدمار، والارتفاع بمستوى الحياة البشرية على سطح العالم أفقياً.. ها هنا حيث يصير بمقدور كل الضائعين أن يجدوا أنفسهم من أي باب يجتازونه إلى ساحة الإسلام: العقل أو الروح أو الحسّ أو الوجدان.. فالنتيجة واحدة: مزيداً من التحقّق لإنسانية الإنسان.

لعلّه الجهل بهذا الدين.. لعله العداء والكراهية.. لعلّه الإرث الثقافي والنفسي.. ما يجعل شتاينبك وهيسه، وعشرات، بل مئات غيرهم من الأدباء والفنانين والفلاسفة والمفكرين، يبحثون عن مصائر لأبطالهم في كل خبرة، وفي مدى أية ساحة إلاّ في ساحة هذا الدين وخبرته التي تعلو بتألق توحيدها المطلق ومعمارها المتناسق المقنع - على سائر الخبرات.